الفصل الثالث

الخنساء الشاعرة

١ ــ مجالها الفنى

٢ ــ منزلتها عند معاصريها

٣ ــ مكانتها عند القدامى

٤ ــ مكانتها عند المحدثين

٥ ــ شاعرية الخنساء فى الميزان النقدى

الفصل الثالث

الخنساء الشاعرة

١ ـ مجالها الفنى

قلت إن تاريخ الأدب العربى احتفل بمولد الشاعرة يوم مات أخوها صخر . ذلك أن النقاد والمؤلفين الأقدمين احتفوا بها راثية فحسب ، ثم هم لا يكادون يعترفون بها شاعرة قبل أن تفجع فى أخيها الأعز ، وهذا « ابن سلام » لا يذكرها إلا فى طبقة شعراء المراثى . وقال « ابن عبد البر » : « كانت تقول البيت والبيتين ، حتى قتل شقيقها معاوية ، ثم أخوها صخر » [١].

وعلى ذلك ذهب أكثر الدارسين ، ولم يحاول أحد من المحدثين أن يتعرض لهذا الرأى بنقد أو مناقشة . حتى ليبدو أن الأمر فيه بديهية مسلمة لا موضع فيها لخلاف .

ولعلهم لو اهتموا بترتيب شعر الخنساء ترتيباً زمنيًّا ، لوجدوا مجال القول فى هذه القضية ذا سعة ، لكن أحداً منهم لم يهتم بتلك المحاولة ، ومن ثم بقيت القضية أشبه بالمقررات التى لا تحتمل الجدل . وبخاصة إذا ذكرنا أن قومنا اعتادوا ألا يعترفوا بالنساء غير راثيات ، متأثرين فى ذلك بأوضاع مجتمعهم الذى وأد الأنثى عاطفيًّا واجتماعيًّا .

وكنت أود أن أناقش هنا ، قضية المجال الفنى الذى حصروا فيه شاعرية المرأة العربية بالرثاء ، فالأمر فيه لا يقتصر على « الخنساء » وحدها ، وإنما يتجاوزها إلى الشاعرة العربية بوجه عام ، ولم يكن « الأب لويس شيخو » فى اهتمامه بمراثى شواعر العرب ، إلا متأثراً بفكرة سيطرت على الجو الأدبى من قديم : « ابن سلام » لم يجد فى طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، مكاناً لغير الخنساء التى وضعها ثانية شعراء المراثى الأربعة المتقدمين [٢] و « البحترى »

---

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٢٧.
(٢) الطبقات : شعراء المراثى .

فى (حماسته) أفرد الباب الأخير لما اختاره من شعر الرثاء ، فقصره على « مختار أشعارٍ لجماعة من النساء فى المراثى » وجاء فيه بأبيات لعشرِ راثيات .

والقضية فى رأيى ، أحق بأن تناقش فى بحث مستقل مفرد [١] وقصارى ما أستطيع قوله هنا ، فى هذه الدراسة الخاصة بالخنساء ، هو أن اشتهار شاعرتنا الجاهلية الأولى بالرثاء واتجاهها بكل طاقتها الشعرية إليه بعد فجيعتها فى صخر ، ربما كان مبرراً لرأى النقاد فى مجالها الفنى ، ومعطياً بعض العذر لهم ، إذا هم قصروه على الرثاء ، وإن تكن الدراسة الناقدة — غير المتأثرة بسيطرة الفكرة — تهتدى إلى روائع من شعرها فى غير الرثاء ، على ما سوف نبينه فى محاولتنا الترتيب الزمنى لقصائدها ، والوقوف عندما أبقى الزمن من شعرها قبل أن يموت صخر .

أجل ، نستطيع أن نلتمس العذر للنقاد فى موقفهم من الخنساء ، ولكنا لا نستطيع أن نطلقه حكماً عاماً على شواعر العرب ، وكأنهن جميعاً خنساوات ؛ وإن تعددت الأسماء واختلفت بهن العصور والبيئات .

وما تزال هذه الفكرة النقدية مسيطرة على مؤرخى الأدب العربى فى عصرنا ، وبحسبك أن تقرأ قول « بروكلمان » فى حديثه عن المرثية العربية القديمة : « على أن إظهار الحزن لم يكن يناسب رجال القبيلة ، كما كان لائقاً بنسائها وخاصة بالأخوات . ومن ثم بقى تعهد الرثاء الفنى من مقاصدهن حتى عصر التسجيل التاريخى » [٢] .

وهذا هو ديوان (أنيس الجلساء) قد ذُيل بمراثى ستين شاعرة عربية ، من الجاهلية وصدر الإسلام ، حتى ليخيل إليك أن حواء العرب تظل معقودة اللسان معطلة الحس صماء الوجدان ، إلى أن تقوم مناحة فتحل عقدة لسانها ، وتفجر ينابيع الحس فى وجدانها !

---

(١) تناولت هذه القضية بمزيد بيان ، فى كتابى « الشاعرة العربية المعاصرة » طبع معهد الدراسات العربية العالية .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى : ١/٤٨ من الترجمة العربية — ط دار المعارف .

ويشهد تراثنا الأدبى ، أن الأديبة العربية حققت وجودها الفنى فى الرثاء وغيره ، لكن مؤرخى الأدب لم يحتفلوا بغير الراثيات .

وحسبنا شاهداً على ذلك ، أن « ابن سلام » لم يعترف للشاعرة « ليلى الأخيلية » بمكان مع شعراء طبقاته ، بل ذكرها عرَضاً فى ترجمته للنابغة الجعدى — وهو عنده أول شعراء الطبقة الثالثة — فقرر أن « ليلى غلبت عليه »[١].

وكذلك اعترف لها « الأصمعى » بالغلبة على « الجعدى »[٢] بل إن ليلى عند بعض النقاد ، أشعر من الخنساء[٣] .

وإنما أهدرها ، أنها خرجت عن المجال الفنى الذى حددوه بالرثاء ، للشاعرة العربية .

كما أُهدر وجودُ أخريات ، ألقى بهن مؤرخو الأدب فى منطقة الظل ، مع ما ألقوا من أخبار وأشعار للخنساء ، فى غير الرثاء .

ويقتضى تحرير الموقف ، أن نتتبع آثار الأديبات العربيات ، ونجمعها من شتى المصادر والمراجع ، وهذا ما لا سبيل إليه الآن ، فى مثل هذه الدراسة الموجزة للخنساء .

٢ — منزلتها عند معاصريها

ظفرت « الخنساء » بتقدير النقاد والدارسين منذ كانت ، ولا تزال حتى اليوم موضع العناية والتقدير ، فلقد أنصفها التاريخ الأدبى للعرب إلى حد غير مألوف ولا معتاد فى النساء ، وإذا قسنا حظ الخنساء بغيرها من شواعر العرب ، ألفيناها قد نالت أكثر مما كان يُرجَى لواحدة منا فى البيئة التى جمعت تراث الشعر الجاهلى وصدر الإسلام ، وأنزلت أصحابه منازلهم .

وقد أتيح لها أن تشهد بعينيها لألاء مجدها ، وأن تجذب أسماع شيوخ الشعر وأمراء البيان فى سوق عكاظ ؛ إذ يُروى أنها جاءت الموسم ، وقد جلس

---

(١) طبقات الشعراء : ٢٧ ، ط ليدن .

(٢) فحولة الشعراء : ٣٤ — وانظر معه : العقد الفريد ٤/٧١ .

(٣) فحولة الشعراء : ٣٧ ، ٤٥ .

« النابغة الذبيانى » للحكم بين الشعراء ، فأنشدته بعض مراثيها فى صخر ، بعد أن سبقها آخرون ، منهم الأعشى وحسان بن ثابت ، فقال لها النابغة : والله لولا أن أبا بصير سبقك فأنشدنى آنفاً ، لقلت إنك أشعر من بالموسم[١].

وفى رواية أخرى أنه قال : لولا أن هذا الأعمى سبقك لقلت إنك أشعر الإنس والجن[٢].

قالوا فغضب حسان ، وقال للنابغة : والله لأنا أشعر منك ومنها .

وتختلف الروايات بعد ذلك فى بقية القصة بعد أن قال « حسان » ما قال :

ففى « الشعر والشعراء » أن النابغة قبض على يد حسان وهو يقول :

— يا ابن أخى ، إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء : أنشديه . فأنشدته .

فقال النابغة : « والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك » .

فقالت له الخنساء : « والله ولا ذا خُصيتين » .

والذى فى (نقد الشعر[٣]) أن النابغة سأل حسان عن أشعر بيت قاله ، فأنشد :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فعاب عليه «النابغة» قوله "الجفنات" وهى جمع قلة والجفان أكثر ؛ و"الغر" وكان الأفضل أن يقول البيض لأن الغرة بياض قليل فى لون آخر غيره . و" يلمعن بالضحى" ولو قال « بالدجى» لكان أحسن . و " يقطرن " ولو قال « يجرين » لكان أحسن ، إذ كان الجرى أكثر من القطر . . .

وكذلك روى « أبو الفرج » القصة[٤] ، بإضافة نقد بيت حسان إلى النابغة

---

(١) قدامة بن جعفر : « نقد الشعر » : ص ١٨ ط الجوائب . والمرزبانى : « الموشح » ٦٠ . والأصفهانى : الأغانى ٢٢/١٠ ط دار الكتب . والشريشى : « شرح مقامات الحريرى » ٢٣٣

(٢) ابن قتيبة : « الشعر والشعراء » : ٣٠١ .

(٣) قدامة بن جعفر : « نقد الشعر » ص ١٧ : ١٩ — الجوائب .

(٤) الأغانى : ٢٢/١٠ ، ط دار الكتب .

ومثله « المرزبانى » الذى روى النقد مجملا .

على أن « ابن قتيبة » [١] عزا النقد إلى الخنساء ، وكذلك « الشريشى » [٢] وهو القول الذى أخذ به أكثر المؤلفين فى عصرنا ، حتى الذين ارتابوا فيها واتهموها بالوضع [٣] .

وقصة هذا البيت ونقده موضع اتهام من قديم، إذ يحكى « ابن جنى » عن «أبى على الفارسى » أنه طعن فى صحة هذه الحكاية ، وإن كان — فيما أعلم — قد انفرد بهذا الطعن . حتى جاء عصرنا فرأينا أكثر المؤلفين يولعون بإنكارها والطعن فيها . وأظهر حجةٍ لهم فى رفض القصة ، أن عصر « الخنساء » قد سبق عصر المصطلحات اللغوية بزمن ، وهذا النقد يتكئ على التفرقة بين الجموع من حيث القلة والكثرة ، وهذا المعنى من اصطلاح النحاة فى عصر التدوين . كما أن فى النقد كثيراً من التكلف والمبالغة ، وهذه نزعة لم تعرف إلاحينما درست علوم البلاغة وزاحم العقلُ والمنطق الذوقَ والفطرة .

بهذا قال المعلم بطرس البستانى الذى ذهب إلى أن « الرواية ربما كانت أثراً باقياً من عداء القرشيين للأنصار ، أريد باختلاقها الطعن فى شاعرية حسان» [٤].

والسيد فؤاد أفرام البستانى الذى صرح بأنه إنما أورد القصة « على سبيل التفكهة ليس غير » [٥] .

والأستاذ طه إبراهيم الذى لم يشك فى أنها صنعت فى القرن الثالث « بعد أن دونت العلوم ودرس المنطق وعرف شىء من رسوم البلاغة » [٦].

والدكتور الحوفى الذى قرر أن هذه التفرقة بين الجموع من حيث القلة والكثرة

---

(١) فى « المعارف » : ١٠٥ .

(٢) شرح المقامات الحريرية : ٢/٢٥٣ .

(٣) « أنيس الجلساء » ص ٩ — طه إبراهيم : « تاريخ النقد الأدبى للعرب » ص ٢٠ . طه الحاجرى : « فى تاريخ النقد » ٢٠ — أحمد الحوفى : « المرأة العربية فى الشعر الجاهلى » ٤٧٢ .

(٤) « أدباء العرب » : ١٩٥ الطبعة الخامسة ، بيروت .

(٥) « الروائع » ، مقدمة ٢ ط بيروت .

(٦) « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » ص ٢٠ .

« من اصطلاح النحاة فى عصر التدوين »[١] .

ولا أريد أن أطيل الوقوف هنا لأثبت للخنساء هذا النقد الدقيق أو أضيفه إلى النابغة ، كما لا أحاول أن أثبت هذا النقد جملة أو أنفيه ، إذ تعوزنا فى الحالين وسائل القطع فى الأمر بيقين . وإذا كان الذين أنكروها قد اعتمدوا على سبق الخنساء لعصر المصطلحات العلمية فقد فاتهم أن النحاة لم يضعوا تلك المصطلحات إلا بعد استقراء طويل لاستعمال العرب فى الجاهلية لصيغ الجموع ، وتتبع دقيق لدلالات هذه الصيغ ، وهو ما انتبه إليه « الدكتور طه الحاجرى » إذ يقول[٢] : « وإنما مبلغ دلالة القصة أن العرب كانوا يفرقون بطبيعة حسهم اللغوى بين صيغ الجموع . وليس هذا مما يحتمل الإنكار ، بل هو الأمر الطبيعى وهو الذى بنى عليه علماء النحو كلامهم عن جموع القلة والكثرة ، وإلا فمن أين لهم هذه التفرقة بينها إلا أن يكونوا صدروا بها عن الاستعمال العربى الذى يفرق بين هذه الصيغة وتلك ، دون أن يكون هذا الاستعمال صادراً عن ذهن علمى كذهن الخليل و سيبويه »

و « قدامة بين جعفر » الذى استظهر به الدكتور الحوفى فى اتهام النقد بالوضع ، لم يشر إلى هذا الاتهام ولا أورده فى موضع الشك والارتياب ، وإنما الذى عناه ، هو مناقشة ما يروون من طعن النابغة على حسان . قال : « على أن من أنعم النظر ، علم أن هذا الرد على حسان . من النابغة أو من غيره - خطأ . وأن حسان مصيب ، . . فمن ذلك أن حسان لم يرد بقوله أن يجعل الجفان بيضاً لكنه أراد المشهورات ، كما يقال يوم أغر ، ويد غراء . . وأما قول النابغة فى " يلمعن بالضحى " وإنه لو قال " بالدجى " لكان أحسن . فهذا خلاف الحق وعكس الواجب ، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد الضياء ، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه ... فأما قول النابغة — أو من قال — إن الجرى أكثر من القطر ، فلم

---

(١) « المرأة العربية فى الشعر الجاهلى » . ص ٤٧٢ .

(٢) « فى تاريخ النقد » — ط ٤٣ ط ١٩٥٣ .

يرد "حسان" الكثرة، وإنما ذهب إلى مايلفظ به الناس ويعتادونه من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن سيفه يقطر دماً، ولم يسمع: سيفه يجرى دماً، ولعله لو قال: "يجرين دماً" لعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع إلى ما لم تجر عادة العرب بوصفه»[1].

والسياق يؤكد أن «قدامة» لم يشك فى القصة، وإنما اطمأن إليها ورد مدافعاً عن «حسان» فلست أدرى من أين للدكتور الحوفى أن يستشهد بقدامة، فى اتهام القصة أصلا، والشك فيها!!

* * *

وأيًّا ما كان الأمر: فالذى أجمع عليه الرواة أن النابغة حكم للخنساء، بعد الأعشى، على شعراء الموسم، وفيهم حسان بن ثابت: وإن اختلفوا فيما بعد ذلك حول النقد لبيت حسان.

وهو حكم جدير بأن تعتز به الخنساء، من أمير الشعراء فى أزهى عصور الشعر العربى الأصيل.

وسيأتى بعد «النابغة» نقاد يضعون الخنساء فى غير هذا الموضوع الأول، لكن يظل حكمُ النابغة لها، يلقى عليها هالة من المجد، وليس يطفئ سنا هذه الهالة، أن تكون القصة كلها موضوعة، بل لعل ذلك الوضع — إن صح — أجدر بأن يؤيد منزلة الخنساء الشاعرة عند الأقدمين، وإلا فهل ترى أحداً كان يكترث لوضع قصة كهذه، لو لم يسندها رأىٌ عام شائع، يحسن تقدير الخنساء، ويعبر عن مكانتها فى المجتمع الأدبى للعرب؟ وهل كان المؤلفون الذين ذكرناهم — وهم مصادرنا لمادة الأدب العربى وتاريخه — يسجلون حكماً للخنساء بأنها أشعر الإنس والجن، ويضيفونه إلى شيخ شعراء الجاهلية، لو لم يكن هذا التسجيل صدى لشهرة ذائعة، واستجابةً لصيت مردد؟

وإذا كنا اليوم، ندخل فى وزن الخنساء، اعتبارات فنية جديدة، فحسبها أنها، بموازين عصرها، قد ظفرت بذاك الحكم القديم من شاعر اختاره

(١) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ١٩ ط الجوائب ١٣٠٢.

معاصروه — فيما تقول مصادرنا — حكَماً بين شعرائهم ، فكان هذا الاختيار اعترافاً صريحاً بمكانته فيهم ، واطمئناناً إلى دقة بصره بشعر عصره ، وأقدار رجاله .

* * *

وندع هذا التقدير الأول ، فيلقانا فى صدر الإسلام ، ما رُوى فى طبقات الصحابة وفى السيرة النبوية ، من إعجاب المصطفى صلى الله عليه وسلم بشعر الخنساء وإصغائه إليه ، واستزادته منه . وقد نقلنا آنفاً عن ترجمتها فى طبقات الصحابة ، خبر وفودها على النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنشادها إياه شعرها وهو يقول : « هيه يا خناس » ويومئ بيده .

ونضيف إليه هنا ما جاء فى ترجمة « عدى بن حاتم الطائى » إذ وفد على الرسول مبايعاً ، مع قومه من بنى طيئ . فقال :

« يا رسول الله . إن فينا أشعر الناس ، وأسخى الناس ، وأفرس الناس »

فلما سأله النبى صلى الله عليه وسلم أن يسميهم أجاب :

« أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر ، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد — يعنى أباه — وأما أفرس الناس فعمرو بن معديكرب » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس كما قلتَ يا عدى : أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد ، وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب »[1] .

وليس وراء هذا لشاعرة أو شاعر مطلب .

---

(١) « خزانة الأدب » ١/٢٠٨ .

٣ـ مكانتها عند الأقدمين

ويمضى العصر الإسلامى الأول ، وتمضى معه « تماضر » من الحياة الدنيا ، لكنها تترك دويًّا يملأ سمع الزمان ، وشهرة تتناقل مع الأجيال ، فهم يروون أن « عبد الملك بن مروان » سأل فى مجلس له : أى نساء الجاهلية أشعر ؟ فقال الشعبى : الخنساء . فسأله عبد الملك : ولم فضلتها على غيرها ؟ قال : لقولها :

وقائلة والناس قد فات خطوها ... لتدركه : يا لهف نفسى على صخر
ألا ثكلتْ أمُّ الذين غدوا به ... إلى القبر ، ماذا يحملون إلى القبر !

فقال عبد الملك : أشعر منها والله التى تقول :

مهفهف الكشح والسربال منخرق ... عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس ممساه ومصبحه ... فى كل فج وإن لم يَغْزُ يُنْتَظَرُ[1]

وذكروا أن « جريراً » سئل : من أشعر الناس ؟

قال : أنا ، لولا هذه الخبيثة ـ يعنى الخنساء ـ .

فسألوه : بم فضلتك ؟ أجاب : بقولها :

إن الزمان وما تفنى عجائبه[2] ... أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراسُ
أبقى لنا كلَّ مجهول وفجّعنا ... بالحالمين فهم هامٌ وأرماس
إن الجديدين فى طول اختلافهما ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وكان « بشار » يقول : « لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه » .

قيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك فاقت الرجال[3] .

---

(١) وتمضى الرواية فتقول إن عبد الملك سأل الشعبى : يا شعبى ، هل شق عليك ما سمعت ؟ أجاب : إى والله يا أمير المؤمنين ، أشد المشقة .

ويلاحظ على هذا الخبر ، أن البيتين اللذين فضلهما « عبد الملك » يرويان فى قصيدة أعشى باهلة ، فى رثاء أخيه المنتشر .

راجع طبقات ابن سلام (ص ٥١ طبع أوربا) ، وأمالى اليزيدى (ص ١٣ ط الهند).

(٢) هذه رواية الشريشى فى شرح المقامات (٢٣٣) ورواية « الأغانى » :

* إن الزمان وما يفنى له عجب *

وانظر الديوان : صفحة ٥١ .

(٣) الشريشى : شرح المقامات ، ٢٣٣ .

وحدثوا أن « المفضل الضبي » دُعى يوماً إلى مجلس « المهدى » فسأله : يا مفضل ، ما أفخر بيت قالته العرب ؟

أجاب : قول الخنساء . . .

فاستوى الخليفة جالساً — وكان متكئاً — وسأله : أى ؟ قال : قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فأومأ الخليفة إلى أحد جلسائه وهو يقول للضبى : قد قلت له (هذا) فأبى علىّ .

قال الضبى : الصواب مع أمير المؤمنين[١] .

* * *

ومضت السنون والقرون و « الخنساء » ملء سمع الزمان ، ومكانها بين فحول الشعراء ظاهر مرموق ، أما بين النساء ، فرأى الكثرة « من علماء الشعر أنه لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها »[٢] .

لم يشذ عن ذلك — فيما قرأت — سوى « الأصمعى ، وعبد الملك بن مروان » فى كتاب « فحولة الشعراء للأصمعى » أنه سأل راويته أبا حاتم السجستانى : « أشعرتَ أن ليلى الأخيلية أشعر من الخنساء ؟ »[٣] .

وصيغة السؤال تشعرنا بأن الأصمعى كان يلقى هذا الرأى فى الشاعرتين ، وهو يحس أنه يخالف الرأى العام المعترف للخنساء بأنها أشعر النساء .

وعبارة الأصمعى هنا ، تذكرنا بالذى نقلنا من قول « عبد الملك » للشعبى وقد خالفه فى الحكم للخنساء بأنها أشعر نساء الجاهلية ، إذ أدرك من فوره أنه يصدم حس سامعه بما يخالف الرأى الشائع فى تفضيل الخنساء ، فهو يسأله :

« يا شعبى ، هل شقّ عليك ما سمعت؟ » أجاب :

« إى والله يا أمير المؤمنين ، أشد المشقة ! »

---

(١) الشريشى : شرح المقامات ، ٢٣٣ .

(٢) « شرح المقامات » ٢٣٣ . والإصابة: ٦٧/٨ .

و « بلاغات النساء » لابن طيفور: ٢٠٤ ط القاهرة ١٣٢٦ .

(٣) ص ٣٧ ، ٤٥ ، ط ١٩٥٣ .

والسؤالان على ما يبدو من مساسهما بمكانة الخنساء ، صريحا الدلالة على ما اطمأن إليه الناس من زعامة الخنساء لشواعر العرب ، فما يكاد يخالف على هذا أحدٌ إلا وهو يحس أنه يشذ عن الرأى الأدبى العام ، ويشق على سامعيه .

فليكن رأى «الأصمعى» أن ليلى الأخيلية أشعر من الخنساء ، وليكن رأى « عبد الملك » قبله أن أشعر منها التى تقول كذا وكذا ، ولنضف إليهما أن « ابن سلام » جعل الخنساء ثانية شعراء المراثى الأربعة المفضلين[١] ، مقدماً عليها « متمم بن نويرة » فالأمر فى كل حال لا يعدو ما نراه من اختلاف علماء الشعر ونقاده فى المفاضلة بين شعراء الطبقة الواحدة . فقد اختلفوا فى فحول الشعر الجاهلى « امرئ القيس والنابغة وزهير » أيهم أشعر ، ثم اختلفوا فى أمراء الشعر الأموى « جرير والفرزدق والأخطل » أيهم مقدم على صاحبيه ، كما اختلفوا فى البحترى وأبى تمام أيهما أشعر من صاحبه ، ثم لم يكن الخلاف فى هؤلاء أو أولئك بحيث ينزل بأحدهم عن طبقته ، أو يغض من مكانه بين نظرائه وأنداده .

على أن « المبرد » قد وضع الشاعرتين معاً ، وإن بدأ بالخنساء ، قال : « كانت الخنساء وليلى الأخيلية فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول ، وقلما رأيت امرأة تتقدم فى صناعة »[٢] .

وقلما يخلو كتاب من الكتب المؤلفة قديما فى الأدب العربى ، من ذكرٍ للخنساء أو استشهاد بشىء من شعرها :

فاليزيدى مثلا يختار مرثية لها فى أماليه[٣].

وكذلك فعل « البحترى » فى حماسته[٤] .

و « المبرد » يؤثرها بالذكر فى معرض الحديث عن أحسن المراثى .

و « قدامة بن جعفر » يستشهد بشعرها فى المختار من أبيات الرثاء ، ثم

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ص ١٦٩ ط . دار المعارف .

(٢) « العقد الفريد » : ٤/٨١ .

(٣) « أمالى اليزيدى » ص ٩٤ ط حيدر أباد ١٩٤٨ .

(٤) ط الرحمانية ، ص ٤ . وللخنساء فيها أربع مراث . انظر ص ٤٢٦ وما بعدها .

يعرض لنقد النابغة لبيت حسان ، دون مساس بحكمه المشهور للخنساء على شعراء الموسم[١] .

ولم ينسها « أبو العلاء » فى (رسالة الغفران) بل اختارها ، دون غيرها من الشواعر ليلقاها فى رحلته إلى العالم الآخر ، بين من لقى من الشعراء[٢] .

واحتفل بها « أبو الفرج الأصفهانى » أيما احتفال ، إذ هى من الشعراء الذين اختير شعرهم للأصوات المئة التى تغنى بها المغنون أيام الرشيد[٣] .

وإن لم يفتنا أن نلحظ أن « أبا تمام » فى (حماسته) لم يأت بشىء من شعرها فى باب المراثى ، مع أنه جاء فى الباب بمختارات من مراثى شعراء ثلاثة ، دخلوا فى حياتها :

ففيه مرثية لخاطبها « دريد بن الصمة » فى أخيه [٤] .

وأخرى لأخيها « صخر » يرثى معاوية [٥] .

وثالثة لابنتها « عمرة بنت مرداس » فى أخيها العباس[٦] .

* * *

ولم تكن عند مؤرخى الأدب فى المغرب مجهولة ولا مغمورة ، فقد اهتم بها ابن رشيق فى (العمدة) والحصرى القيروانى فى (زهر الآداب) .

وابن خلدون فى (تاريخه) .

٤ــ مكانتها عند المحدثين

ولا تزال فى عصرنا موضع عناية المؤلفين والدارسين . ومن شاء فليرجع إلى :

« تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان .

و « شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام » لبشير يموت .

و « شهيرات النساء » لقدرية حسين .

---

(١) « نقد الشعر » ط الجوائب .

(٢) رسالة الغفران — تحقيق المؤلفة ، ص ٣٠٨ ط رابعة ، الذخائر .

(٣) « الأغانى » : ج ١٣ ط بولاق ٢ وانظر معه ج ٥ ، ج ١٠ ط دار الكتب .

(٤ ، ٥ ، ٦) ديوان الحماسة : الباب الثانى — صفحات ٣٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٨ على التوالى .

و « أعلام النساء فى الجاهلية والإسلام » لعمر رضا كحالة .
و « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور » لزينب فواز .
و « أدباء العرب فى الجاهلية والإسلام » لبطرس البستانى .
و « المرأة فى الشعر الجاهلى » لأحمد الحوفى .[١]

ونشر الآباء اليسوعيون ديوانها عام ١٨٨٨ ، كما أفردت لها حلقة فى سلسلة (الروائع) بقلم فؤاد أفرام البستانى . وترجم لها المعلم بطرس البستانى فى دائرة معارفه .

كما اهتم بها المرحوم طه إبراهيم فى كتابه عن (تاريخ النقد الأدبى للعرب) وطه الحاجرى (فى تاريخ النقد) وبدوى طبانة فى (دراسات فى النقد) .

وبطرس البستانى يراها « أشعر النساء وتفضل على الرجال » .

وفؤاد أفرام البستانى يقول إنها « أهل لما ظفرت به من إجماع علماء الشعر على تقديمها على شواعر العرب » .

والحوفى يقرر أنها « عند المحدثين زعيمة شواعر الجاهلية والإسلام فى الرثاء » وعناية المستشرقين بها لا تقل عن عناية الشرقيين : كتب لها « كرنكوف » فى (دائرة المعارف الإسلامية) ترجمة وافية ، وألف «جبريالى» كتاباً عن (عصر الشاعرة الخنساء وحياتها) طبع بالإيطالية فى « فلورنسه » ١٨٩٩[٢] .

ونشر « رودوكاناكيس » كتاباً عن (الخنساء ومراثيها) طبع بالألمانية فى « ڤينا » ١٩٠٤[٣] .

كما نشر « الأب كوبييه » ديوانها بالفرنسية فى بيروت ١٨٨٩ .

وترجمت قصائد لها فى عدة دواوين أوربية للشعر الشرقى[٤] .

وترجم لها « بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » .

---

(١) بعد ظهور الطبعة الأولى من كتابى هذا عن الخنساء ، ظهر فى بغداد « الخنساء فى مرآة عصرها » للسيد إسماعيل القاضى وظهر فى القاهرة « الخنساء » – فى أعلام العرب – للدكتور جابر الحينى .

(٢) Gabrieli ; I Temqri, la Vita e il Canzoniere della Poetssa al Hansa.

(٣) Rhodokanakis : al-Hansa und ihre Trauerleider.

(٤) راجع دائرة المعارف الإسلامية : مادة الخنساء .

٥ ـ شاعرية الخنساء فى الميزان النقدى

لم يكن الاعتراف بمكانة الخنساء حائلا دون تعرضها للنقد . وقبل أن نتتبع هنا آراء النقاد فيها ، نحاول بادئ ذى بدء أن نستبين المجال الفنى الذى حدده الأقدمون للخنساء .

ولقد قلت فى حديثى عن حياة « تماضر » إن تاريخ الأدب العربى احتفل بمولد الشاعرة يوم مات أخوها صخر ، وهذا « ابن سلام » وهو من أوائل علماء الشعر ، قد حصر مجالها الفنى فى الرثاء وحده . وعلى هذا جرى المؤلفون من بعده ، لا أستثنى منهم أحداً من المتقدمين أو المتأخرين ، حتى بدا كأن الأمر فيه قضية مسلمة ، لا مجال فيها لخلاف أو مناقشة .

ومع ذلك ، فإن محاولتنا ترتيب شعرها ترتيباً زمنيًّا ثم ترتيباً موضوعيًّا — وهى المحاولة الأولى من نوعها فيما نعرف — كشفت لنا عن مجالٍ للقول فيما ذاع من قصر المجال الفنى للخنساء على الرثاء وحده .

فى الديوان قصيدة من أجمل شعرها ، وصفت بها سباقاً بين أبيها وأخيها صخر ، ومستبعد أن تكون قد قالت هذه القصيدة الرائعة قبل وفاة صخر .

وفيه كذلك ، مرثية لزوجها مرداس ، وقد رجحنا أنه مات قبل نقطة التحول فى حياتها بفجيعتها فى صخر .

وفيه مراث لشقيقها معاوية . والثابت عند كل من أرخوا للخنساء ، أنه قتل قبل صخر بزمن .

ثم إنهم فى تأريخهم لحياة الخنساء ، بدءوا قصتها بخطبة دريد بن الصمة لها ، فردته بأبيات من الشعر ، وكانت بعد لا تزال فى مطلع الشباب . ولما هجاها مغيظاً من مهانة الرفض ، قيل لها « ألا تجيبين دريداً إذ هجاك ؟ »

فأجابت : « لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه »[١] .

وفى (الأغانى) أنها سئلت أن تهجو « قيس بن الخطيم : شاعر الأوس » وما كانت لتُسأل مثل هذا ، لو لم يعرف القوم أنها شاعرة تحسن الهجاء .

لم تكن « الخنساء » إذن معطلة الشاعرية لا تقول غير البيت أو البيتين حتى مات صخر[٢] ، ولكن القوم جروا من قديم الزمان على أن يقصروا المجال الفنى للنساء بعامة على الرثاء ، وهى قضية أشرنا إليها فى الفصل الثالث ورأينا أنها فكرة عامة مسيطرة ، تسرى على الخنساء كما تسرى على الجنس كله ، ويضاف إلى هذا أن استئثار « صخر » بالحظ الأوفى من عاطفة الخنساء وشعرها ، جعل القوم يؤثرونه بعنايتهم . ولو استعرت لغة الفن المسرحى اليوم ، لقلت إن ظهور صخر فى شخصية البطل الأول فى قصة الخنساء ، جعل القوم يسلطون الأضواء عليه ، ويتركون ما عداه ومن عداه ، فى منطقة الظلال .

فلا عجب أن أرخوا حياتها الفنية بموت صخر وقصروا مجالها الشعرى على الرثاء ، أما ما قالته قبل وفاة صخر ، وأما ما قالته فى غير رثاء صخر ، فلا يكاد يتعدى فى تقديرهم « البيت أو البيتين » ولو كان من روائعها الفنية كقصيدتها فى السباق ، ومرثيتها لزوجها مرداس ، أو كان من قصائدها الطوال نسبياً كبعض مراثيها فى شقيقها معاوية .

وقد وقف الأقدمون فى نقد الخنساء ، عند قصر مجالها الفنى على الرثاء ، ثم الموازنة بينها وبين شعراء طبقتها موازنة مجملة ، تقف عند تحديد المكان الذى يرونها أهلا له بين شعراء المراثى ، كما فعل « ابن سلام » أو بين شواعر العرب كما فعل « الأصمعى » وغيره[٣] .

---

(١) الأغانى : ١٠/٢١ دار الكتب .

(٢) الاستيعاب : ٤/١٨٢٧ .

(٣) راجع « مكانة الخنساء عند القدامى » بالفصل الثالث من هذا الكتاب .

وربما كان إغفال «أبي تمام» لمراثيها فى (حماسته) معبراً عن موقفٍ له منها ، أو رأيٍ له فيها غير صريح .

أما المحدثون ، فلبعضهم فى هذا النقد محاولات محدودة قاصرة المدى ، ولعل المستشرقين هم أول من فتح الباب لنقد جديد .

قال «كرنكوف» ما نصه :

« ومن العسير أن نقطع برأى فيما إذا كانت الخنساء قد أضافت سمات إلى المرثية العربية أو لم تضف ، ولو أننا نكاد نقطع بأن قصائدها ألهمت عدداً كبيراً من شعراء المراثى المتأخرين ومنهم ابنتها عمرة . أما إذا وازنا بين شعرها وشعر غيرها من أصحاب المراثى من معاصريها — وحسبى أن أذكر منهم متمماً وأبا ذؤيب — فقد حق لنا أن نعترف بأن قصائدها يعوزها ما عندهم من الجمال الشعرى . ولكنا نجد فيها على قصرها بالنسبة لقصائدهم ، حزناً أبلغ صدقاً وإن كنا نجد فيها تكراراً لنفس الأفكار والألفاظ يبعث السآمة فى النفس »[١].

والتقط الدارسون الشرقيون هذه الملاحظ النقدية الموجزة ، فرددوها هنا فى مصر وهناك فى لبنان . لكن بعد أن أوسعوها شدّاً ومطّاً !

فالسيد فؤاد أفرام البستانى يقول ما نصه :

« فهى شاعرة أكثر منها ناظمة ، وهو ما يروقنا فيها . . وإن كان للبعض ممن عاصرها أو تأخر عنها من الرثائيين . قوة سبك وجمال شاعرية لا نراهما فى شعر الخنساء . . . أما ما أدخلته من صفات جديدة فى المرثية ، فمن الصعب أن نحدده . . . ولكن ما لاشك فيه أن من تبعها من شعراء الرثاء وشواعره اغترفوا جميعهم من بحرها الفياض بفيض العاطفة البشرية »[٢] .

ولم يشر السيد إلى (دائرة المعارف الإسلامية) بكلمة ، مع أن كلامه هنا كما ترى ، ترديد لنص عبارة « كرنكوف » فى الدائرة ، مع شىء من التقديم والتأخير ، وقدر من هلهلة الفكرة والغلو .

---

(١) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة الخنساء .

(٢) « الروائع » العدد ٢٨ المقدمة .

والمعلم « بطرس البستانى » يردد كذلك ما لمحه « كرنكوف » من قصر قصائدها وصدق تفجعها وحزنها ، وحصر معانيها فى صور محدودة المعانى والتعابير ، على أنه أضاف إلى ذلك كله : غلوّها المسرف ، وضعف مخيلتها ، وخلو معانيها من المعانى الحكمية السامية . قال :

« سائر ديوانها يجرى على هذا النمط من البكاء والتفجع والمغالاة فى مدح أخيها ، ولعل الغلو أظهر خاصة فى الخنساء . . . ورثاؤها عاطفى بحت . لا يشوبه تكلف ، ولا يرتفع بها الفكر إلى المعانى الحكمية السامية التى نجدها فى رثاء لبيد لأخيه . . . وشعرها خال من القصائد الطوال التى عرفناها فى الشعراء الجاهليين ، فأطول قصيدة لها : « قذى بعينك أم بالعين عوار » لا تتجاوز الخمسة والثلاثين بيتاً . وأكثر شعرها أبيات ومقطعات . ولعل ذلك ناتج بعضه عن ضعف المخيلة فى المرأة ، وبعضه الآخر عن وحدة الموضوع ، فهى لم تطرق غير الرثاء بما فيه من تفجع ومدح . همها الرثاء على صخر وإطراء شمائله ، مما جعل أفكارها محصورة فى صور محدودة المعانى والتعابير »[1] .

و « الدكتور الحوفى » يردد هذه الأحكام النقدية بعينها ، مع إطلاقها على مراثى النساء بعامة . قال :[2].

« ويمتاز رثاؤهن بندرة الحكمة فيه . ولم أجد فى مراثيهن من الحكمة إلا قليلا جداً » كما « تمتاز قصائدهن بوحدة الموضوع » « وقصائدهن مقطعات فليست لإحداهن مطولة ، وأطول قصائد الخنساء — وهى زعيمتهن فى طول القصائد — أبياتها خمسة وثلاثون ، على حين تكثر المطولات فى شعر الرجال . « وربما كان مبعث هذا القصر تعاطى الموضوع الواحد . وأن دموعهن وصياحهن وأناتهن تنفس عن حزنهن تنفيساً أقوى وأبرز من الشعر » .

والدكتور فى هذا كله لا يخرج عن رأى المعلم بطرس البستانى ، وإن توسع

---

(١) « أدباء العرب » ١٩٠ الطبعة الخامسة ، بيروت .

(٢) « المرأة فى الشعر الجاهلى » : صفحات ٤٩٣ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ .

فى تعميم هذه السمات العامة لشعر الإناث ، والتمس لها أسباباً من طبيعة الأنثى وبيئة المجتمع العربى .

* * *

وهذه المآخذ النقدية موضع نظر :

فالقول بأن مراثى الخنساء — والنساء بعامة — خالية أو تكاد من شعر الحكمة ، لم يُؤيَّد باستقراء دقيق ولا بإحصاء رقمى . فالمعلم بطرس البستانى اكتفى بالإشارة إلى لبيد؛ والدكتور الحوفى ، نقل أربعة أبيات لأبى ذؤيب ، وبيتاً لكل من : أبى زبيد والغنوى فى رثاء إخوتهم ، مقابلة بأبيات سبعة لثلاث شواعر ، فى رثاء إخوتهن كذلك[1] ، ومنها بيت واحد للخنساء .

ولا أرد عليه هنا بأن ما استشهد به من أبيات الحكمة فى المراثى ، لا يسند رأيه بحال . كما لا أرد عليه بعرض حِكَم الخنساء ، وليست قليلة ، بل يكفينى أن أقول إن « الحكمة » ليست شرطاً فى الشاعرية بعامة ، ولا هى من مقوّمات المرثية بخاصة . وقد ضاق شيوخ النقاد — فيما ذكر ابن خلدون[2] — بشعر المتنبى وأبى العلاء وابن خفاجة لازدحامه بالمعانى والحكم ، كما ضاق النقاد من قبل بأبى تمام لمثل هذا أو ما يشبهه [3] وفى عصرنا هذا سمعنا من يأخذ على « شوقى » أنه إذا رثا ترك الميت وتحدث عن الموت ، وأرانا هنا أمام نقاد يعيبون على الخنساء افتقار مراثيها إلى الحكم والتحدث عن الميت . لا عن الموت !

ولم نسمع عن علماء الشعر المتقدمين أنهم أدخلوا الحكمة فى وزن المرثية ،

---

(١) مما يلفت نظر الدارس هنا ، أن مراثى متمم ، ولبيد ، وأبى ذؤيب ، فى الإخوة وليس فى أب أو أم أو زوجة أو ولد ، وكذلك الشأن فى أكثر مراثى الشواعر التى جُمعت فى « أنيس الجلساء » وإنها لظاهرة تحتاج إلى من يفرغ لها فى بحث متخصص ، يستقرئ شعر الرثاء ليحصى نصيب الإخوة فيه ، ثم يستبين فيما ما يفسر هذه الظاهرة على ضوء ما نعرف من بيئة القوم ومجتمع القبيلة .

ولى فى هذا محاولة ، عرضتها خلال دراسة « للمرثية الجاهلية » ونشرت فى العدد الثالث من حولية كلية البنات ، بجامعة عين شمس : ١٩٦١ .

(٢) المقدمة : ص ٥٧٣ ط التجارية .

(٣) « رسالة الغفران » ص ٣١٦ ط ثانية ذخائر ، وانظر « الموازنة » للآمدى .

بل الذى قاله المبرد ، وقدامة بن جعفر : إن أجود الرثاء ما جمع إلى التفجع على المرثى تعداد مناقبه ومدح مآثره .

وطول القصيدة ، وإن دخل فى حساب كثير من النقـــاد ، وأولهم « ابن سلام » الذى وضع الكثرة وطول النفس موضع التقدير فى وزن الشعراء[1] إلا أننا نراهم — فى الغالب الأعم — يقدمون شاعراً على آخر ببيت واحد قاله ، بل جاوزوا ذلك فحكموا بأن فلاناً أشعر الناس لأنه قال كذا . ، وهذا شاهد على أنهم لم يروا فى الحكمة مقياس الجودة ، وإنما قاسوا « بالكيف » .

* * *

لعله قد بدا ، خلال عرضى لمآخذ القدامى والمحدثين على شعر الخنساء ، أننى لست ممن يدخلون فى حسابهم عند وزن الشاعرة ، طول القصيدة أو قصرها ، وكثرة الحكم فى شعرها أو ضآلة حظه منها . والحق أن هذه الموازين النقدية لم تعد فيما أرى ذات شأن ، فى عصرنا المقدر لفنية الشعر وإنسانية الفن ، المعتد بالعمق أكثر من اعتداده بالطول والعرض .

وليس معنى هذا أننى أضع شعر الخنساء بمنأى عن النقد ، أو أنجو لها به خالصاً من المآخذ والعيوب ، وإنما معناه أنى أحاول أن أعرض شاعرية الخنساء على مقاييس نقدية جديدة ، فأقرأ ديوانها قراءة لا تعنى بالكم والشكل قدر ما تعنى بالجانب الفنى والإنسانى فيه .

وأجرؤ على أن أدعى أنها محاولة جديدة ، فمبلغ علمى عن الذين كتبوا فى نقد الخنساء أنهم ، باستثناء « كرنكوف » ، لم يخرجوا فى تقويم شعرها عن تلك المقاييس الشكلية من قلة الحكم ، وقصر القصائد ، والتكرار ، والغلو — ولا أراها تتصل بجوهر الشاعرية أو تلائم روح العصر .

وفى محاولتى هذه ، أصغى إلى مراثى الخنساء ، فأجدها فى عدد غير قليل من المراثى المتأخرة قد التفتت إلى الجانب المادى واحتفلت به ، فهى إذ تبكى

---

(١) طبقات الشعراء ، فى مواضع متفرقة .

أخاها ، تعدد ما نالها من بره ورفده وعطائه ، وتشكو أكثر ما تشكو خسارتها المادية الفادحة ، فى الجواد الكريم المعطاء ، فإذا تجاوزت هذا النطاق من خسارتها الفردية ، فإنما تتجاوزه لتصف مصاب القبيلة فى فتاها الكريم البطل ، مأوى اليتامى والأرامل ، وحامى الحمى والذمار .

وقلما بكت الخنساء فى متأخر مراثيها لصخر ، صنو نفسها وعديل روحها ، أو وقفت بعده بالأطلال تسأل عن ملعب صباهما المشترك وملهى طفولتهما معاً قلما ساءلت الزمان عن أنس الأخوة ، وجمال الصحبة فى الأيام الخوالى ، أو افتقدت فى شيخوختها الحزينة ذكريات ماض لهما عزيز ، ولّى وراح . . .

ولطالما ألم بها طيف أخيها الراحل ، فاستثار فيها الحزن على ما كان من بره وحمايته ، ولكن قلما عناها وهى تناجيه بمواجعها ، أن تطوف به فى دنياهما الواحدة ، وتصحبه إلى معالم ماضيهما ، أو تشكو ما تجد من لوعة لفقد رفيق المهد وزميل الصبا .

وبدت ، أو شاء لها مؤرخوها أن تبدو ، كما لو لم يروعها سوى الخسارة المادية ، أما المحنة النفسية بموت الأخ ، أو المصاب الروحى بتصدع شطر من كيانها ، أما الجرح القلبى بتمزق الشمل المؤتلف وبعثرة الجمع الملتئم ، فلم يظهر بوضوح فى صورة الراثية المفجوعة ، بل كاد يتوه فى ضجيج التأبين لسيد العشيرة .

تسألها أم المؤمنين « عائشة » عما روعها من فقد صخر ، فتحكى لها حكاية التجائها إليه حين أتلف زوجها ماله ، فأعطاها صخر شطرماله ، وعاودت سؤاله مرة ثانية ، وثالثة ورابعة ، وهو فى كل مرة يعطيها خير الشطرين ، حتى إذا لامته امرأته ، أبى أن يستجيب ، مقسماً ألا يعطى أخته شر ماله ، وهى حصان قد كفته عارها ، ولو مات لمزقت خمارها وجعلت من شعر صدارها .

لكن الخسارة المادية لم تكن وحدها التى روعت الخنساء !

وإن بدت كذلك ، فى موقفها الشاذ من فلذات كبدها ، حين لم ترثهم ببيت

من الشعر ، وقد ملأت الدنيا نواحاً على من أعطاها شطر ماله . فقدمت الثغرة التى يمكن أن ينفذ منها الناقد ليعيد النظر فى ذلك المجد الأدبى الذى ظل على القرون شامخاً .

« الخنساء » شاعرة قبيلة ، وطول حديثها عن مصاب القبيلة فى « صخر » ، شاهد على أنها كانت فى كثير من مراثيها ، تصدر عن ذاتية جماعية . لا عن ذاتية فردية . وهو ملحظ نقدره حق قدره ، فى التراث الفنى لشعراء القبائل ، الناطقين بلسان الجماعة ، الممثلين لوجدانها العام .

لكن « الخنساء » بوصفها شاعرة أنثى ، كانت مرجوة لأن تكشف بوضوح عن الذاتية الخاصة ، فى فجيعتها فى صخر ، ولو بالقدر الذى نرى فيه ذاتيتها الجماعية ، حين تؤبن فقيدها ، وتبكى فيه موئل الأرامل واليتامى ، ومغيث الملهوف ومطعم الجار ، وحامى الذمار .

وإذا كنا لا نفتقد فى المرثية الجاهلية بوجه عام ، صدى العواطف الذاتية للراثى ، فمراثى الشواعر بوجه خاص أولى بأن تعكس هذا الصدى بعمق واضح مثير .

لكن يبدو أن جامعى المختار من شعر الرثاء ، اتجهوا إلى إيثار ما يعبر منه عن الخسارة المادية فى الفقيد ، متأثرين فى ذلك بروح عصرهم وبيئتهم . ولا يخطئنا مع هذا ، أن نعثر بين حين وآخر ، على نفثات حارة فى المروى من مراثى الشواعر ، تعبر عن قلب جريح ، وحزن نافذ إلى أعماق الوجدان . وألفت بوجه خاص إلى :

مرثيتى « ليلى بنت سلمة » فى أخيها :

أقول لنفسى ، فى خفاء ألومها ... لك الويلُ ، ما هذا التجلد والصبرُ
وكنت أرى بيناً به بعضَ ليلة ... فكيف ببينٍ دون ميعاده الحشر
وهوّن وجدى أننى سوف أغتدى ... على إثره يوما ، وإن طال بى العمر[1]

* * *

نعاه لنا الناعى فلم نلقَ عبرةً ... بلى حسرةً تبيض منها الغدائر
كأنى غداةَ استعلنوا بنعيه ... على النعش ، يهفو بين جنبىّ طائر[2]

(١ ، ٢) حماسة البحترى ٤٣١ ، ٤٣٢ .

وقول « زينب بنت الطثرية » فى رثاء أخيها يزيد :

أرى الأثلَ من بطن العقيق مجاورى ... مقيما ، وقد غالت « يزيدَ » غوائله
وكنت أعير الدمعَ قبلك من بكى ... وأنتَ على من مات بعدكَ شاغله (١)

ومرثية « قتيلة بنت النضر القرشية » فى أخيها الذى أسر ببدر كافراً ، وضربت عنقه صبراً . وهى مروية فى أخبار غزوة بدر بكتب التاريخ والسيرة ، وفى المختار من مراثى النساء بحماسة البحترى ، وغيرها من كتب الأدب .

وللخنساء نصيبها من هذا الشعر المعبر عن ذاتيها الخاصة ، الكاشف عن شجنها المر العميق . وأكثر ما نجده فى المراثى التى قالتها فى صخر والحزن عليه جديد ، والمناحة قائمة ، وسوف نعرض له بعد بمزيد بيان .

وإنما غلبت عليه مراث كثار ، بكت فيها الخنساءُ الخسارةَ فى صخر ، حيث نفتقد فيها غالباً ملامح العالم النفسى الخاص لشاعرة فجعت فى أخ حبيب . كما تغيب تماماً ، أشجان أم شاعرة ثكلت بنيها الأربعة فى يوم واحد .

وأعود فأقول للمرة الثانية : من يدرى ! لعله الظل الكابى الذى يُلقى على صورة « الخنساء » لا كما كانت فى الواقع وحقيقة الأمر ، ولكن كما أراد رواة أدبنا ومؤرخوه أن يرسموها .

---

(١) حماسة البحترى : ٤٣٣ . وانظر معها مرثية « طيبة الباهلية » لأخيها ، فى حماسة البحترى : ٤٣١ .